معارك نقدية

غيبة العقل عن العمل الشعري ...

جابر عصفور

أن يظهر ديوان جديد يعني أننا نقلص من حجم النثر الذي تمتلىء به الحياة وان الشعر الذي يحتويه يساعدنا على التجنيح والخروج من المادة الضيقة الافق فيتسع أفق القارىء الفكري والوجداني والجمالي .. وديوان « الخضراء » للشاعر الشاب أمجد ريان محاولة جادة لمساعدة القارىء على أن يخرج من نطاق الاشياء المعتادة ويعيش في جو شبه أسطوري من خلال صور جديدة ترسم آفاقا غير معتادة . ان هذا الديوان من الناحية الفنية يمتاز بأنه يحاول أن يلجأ الى الاسطورة والى استخدام الصور طريقا لرسم العمل الشعري والى براعة شديدة في الجريان الشعري والشعوري معا . لكن ـ في الوقت نفسه ـ يحاط شعره بغموض شديد بحيث تبدو هذه الوسائل الفنية موظفة ولكن في لا قضية .. فاذا كان قيس يجعل من ليلى بطلة لاشعاره فان أمجد ريان يحاول أن يجعل من حبيبته ـ واسمها حبيبة ـ بطلة لاشعاره .. لكنه يحاول قدر امكانه أن تتحول من الحبيبة التي هي من لحم ودم الى أسطورة يريد أن يجعل منها رمزا لمصر ورمزا للحب الذي يعلو على الصعاب . لكن المحاولة لا تنجح تماما وذلك لان الاسطورة قديما كانت هي الرؤية الفكرية للعالم .. فأسطورة ايريس وأوزوريس ـ مثلا ـ هي رؤية الشعب المصري قديما لقصة الولادة والموت والبعث وانتصار الشعر مرحليا الى أن ينتصر الخير والخصب والنماء .. كانت الاسطورة هي التعبير العلمي في ذلك العصر ، أما أمجد فيسير في درب كوكبة من الشعراء تريد تحويل الحبيبة التي هي من لحم ودم الى نوع من الاسطورة وذلك على عكس مقتضيات الواقع المعاصر الذي كان الاحق أن يعاد فيه تفسير الاسطورة القديمة في ضوء روح العصر .. ولهذا لا تتحول حبيبة اطلاقا الى ايزيس لانها ظلت نوعا من التهويم الذي يحلق فوق أفق الشاعر .. وهذا عكس ما نجده مثلا في شعر التصوف حيث يمكن تفسير التجربة الصوفية على أنها تجربة دنيوية وهذا يعطيها خصبا وعمقا شديدين .. أما في شعر أمجد فالبطلة لا ملامح لها .. لا تدخل في تجارب معاشة مع شاعرها لانه أفقدها واقعها المادي وحاول أن يحولها الى أسطورة .. لكنه لم ينجح لانها لم تفسر كونا ولم تضف عمقا جديدا لقارىء هذه الاشعار .. فما السر في عدم النجاح هذا ؟ كشف الشاعر السبب في قصيدته (أغنية القلب الفيروزي) .. يقول :

«وانا أكتب شعري للمجتمع ولا أكتب شعرا للشعر»

فليكن أن الشاعر يريد أن يكتب شعرا للمجتمع لكن بشرط أن يظل في اطار الشعر .. انه يحاول ـ عبثا ـ أن يخلق من حبيبته أسطورة تعبر عن المجتمع لكنه يفقدها ملامحها الخاصة وتصل الى التجريد الذي لا يقول شيئا بعينه ..

فاذا انتقلنا الى قضية أخرى عند الشاعر هي قضية الصور فنحن أمام ظاهرة غريبة هي وجود شاعر متمكن قادر على رسم صورة جديدة لها أعماقها النفسية والفكرية وهي صور متلاحقة .. يقول :

غضبي لا يركع أبدا

ويقول :

عرفت استحلام الدهشة بين جحيم الوعي وبين التجريد الطاهر

ويقول :

جماهير البكاء

ويقول :

أخرج في أسراب أوز الفقراء المذعور

ويقول :

ودفنت حياتي في قيلولة جسدك

ويقول :
أمزج معك نفسي بين فصوص الالم وبقع الحزن
وناكل من دسم الارض

الى اخر هذه الصور العميقة الاحساس والتركيب والتي تعوض فقدان الاسطورة من ناحية مضمونها وتثري الاسطورة بالتراكيب الجديدة .. لكنه وهو ينسج هذه التراكيب يجمع بين شيئين لا يأتلفان في الواقع وانما كانا يأتلفان بالامكان ، مثل قوله :
والقلب هلال

وقوله :
فصوص الالم

فهو يجسد في القالب المعنوي .. لكن عندما يقول على سبيل المثال :
وتصدأ الصقور

لا نعود في عالم ما لا يأتلف بل في عالم ما يتنافر فلا يمكن تصور امكانية أن يصدأ الصقر لكنه في زحمة تدفق الصور لا ينتبه فلا يفرق بين نوعين من الصور التركيبية التي تحتمل تصورا والتي يستحيل أن نتخيلها مهما حاولنا :

هذه الصور عند الشاعر تتدافع أشبه بحصان مطارد بالسياط فوق منحدر وما من قوة تكبح جماحه وزاد من ذلك أن أمجد يخلق أسلوبا خاصا به ، وهذا حقه . لكنه جعل البيت الشعري يطول الى ما يكاد يوازي عددا كبيرا من الاسطر .. بل أحيانا ما تكون القصيدة بيتا واحدا متدفقا من التفاعيل بشكل ليس مبررا فنيا وهي ظاهرة مطردة بل لا يقتضيها السياق من ناحية المضمون الا فيما ندر عندما يصور مثلا مطاردة الفرس له فان هذا يقتضي تدفقا شعريا متصلا يتمشى مع مطاردة الفرس في مثل قوله :

« جريت وطاردني الفرس جريت وكان زفير الفرس الراكض خلفي يلسعني في ظهري بسخونته وجريت تعبت البرق كريستال وجريت جريت الى قفص النهر وقفت على التل وناديت بأعلى صوتي وطني ! »

ان تدفق الصور الشعرية انما يكشف حقا عن مقدرة الشاعر على ما يعرف بالجريان الشعري وهو تدفق شعوري وصور متلاحقة ولكنها صور غير بناءة .. بمعنى أنها دائما تكرار الصورة تتلو الاخرى دون محاولة لاضافة جديدة ولكنها من نفس البعد والعمق فلا تتصاعد الى بعد أعمق .. بل انها تلتف في غموض لا تكشف عن رؤية فكرية واضحة بل عن أحاسيس غامضة لم يستطع الشاعر أن يبلورها .. يقول :

« أبقر بطن الشمس وأوقد للساحرة الشيخة رسلي فأنا مسجون في أرض النقش الليلي المتلاعب أتصدى للرمح المسنون المتصلت في وعي الانسان الطالع بين فكاهات التاريخ وبين سراديب المدن المختصرة فوق صلاة الريش المحترق وفوق جسور الجثث الحية »

انه الغموض والصور المتراكمة التي تنقل احساسا واحدا رتيبا لا يفضي الى احساس اخر ..

فاذا انتقلنا الى قضية أخرى وهي قضية اللغة فماذا نجد عنده ؟ ان لغته هي ميزته الكبرى ، فهي لغة السلاسة والبساطة .. لغة مكسوة بالبيئة المصرية وهي المحاولة نفسها التي نجدها مثلا عند الشاعر كامل أيوب في ديوانه (الطوفان ومدينتي السمراء) يقول :
أنا شفت المر

ويقول :
وأبص الى جسدك

ويقول :
قلبي فضلني أكثر من كل الناس لاني أحببتك أكثر من كل الناس وقلبك لا يقدر الا أن يحكم بالقسطاس ..

انها التعبيرات المصرية تنساب على مدى الديوان ويساعد على ابراز هذه التعابير المصرية رسم صورة مستمدة من البيئة المصرية .. يقول في قصيدته « في عشق حبيبة » :

« أنبهر أراك أمام النهر الاشقر تنشغلين بتصفيف الشعر ونصب الافخاخ أمام الطير »

وهكذا تتوفر أمام أمجد ريان كل المقدمات الصالحة للشعر .. لكن الشعر لا يولد من هذه المقدمات متكاملة .. السبب في هذا أنه يفتقد الى بعد جوهري هو التجربة التي تبرز منها الاحداث فلا توجد أحداث .. وكل ما هنالك احساس غامض بالحب واحساس غامض بمحاولة تحويل الحبيبة الى رمز . وكل هذا في عتمة .. وكل هذا في جو ضبابي لفقدان الفكر . واذا فقد الفكر فقد الفن أيضا .. ولنتذكر أن الفيلسوف الالماني فريدريك هيجل يعرف الفن بأنه العقل وهو يتبدى من خلف شعائر الاحساس .. لكننا لا نجد أبدا العقل .. واذا كان يقول في قصيدته (اغنية القلب الفيروزي) وأنا قلبي الفيروز الخالص يفهم في مسألة الشعر .. فاننا نتساءل : هل فهم أن الشعر فكر وفكر واضح بجانب أن الشعر صور وبناء بالصور ؟! اننا ننتظر الجواب في ديوان قادم للشاعر يجعلنا نقول عن يقين : ان قلب الشاعر الفيروزي يفهم حقا في مسألة الشعر !!

مدينة المقطم - ج.م.ع.